الفصل
الثاني

ما هي الرواية العامة؟

ما هي الرواية العامة؟

إن التساؤلات حول ما المطلوب مني القيام به، وما المطلوب من مجتمعي، وما المطلوب منا القيام به الآن هي تساؤلات قديمة قدم حوار النبي موسى مع الله حين سأل موسى ربه بعد أن أمره بتحرير شعبه: **لماذا اخترتني؟ ومن – أو ما هو – الذي يبعث هذا الواعز فيّ؟ ولم هذا الشعب دون غيره؟ ومن هم؟ ولماذا هنا، الآن، وفي هذا المكان؟**

تتطلب ممارسة القيادة – أي تمكين الآخرين من تحقيق غايتهم في ظل أجواء من عدم اليقين- إشراك القلب والعقل واليدين معا، أي الدافعية والإستراتيجية والتحرك، ومن خلال الرواية يمكننا أن نعبر عن خبرتنا في اتخاذ القرارات إزاء تحديات حيوية وملحة، وأن نتعلم كيف يمكن أن نغرف من قيمنا للتعامل مع التوتر والحبور اللذان يترافقان مع حالة القدرة على الفعل. إنها عملية استطرادية يحدد من خلالها الأفراد والمجتمعات والدول خيارات معينة ويقومون ببناء هوية مشتركة، ويلهمون الآخرين للتحرك. ولأننا نستخدم الرواية لجذب"العقل" و"القلب"، فإنها تعلّم وتلهم في آن واحد، فهي لا تعلّمنا كيف يجب أن نتصرف فحسب، بل وتحفزنا على الفعل، وبذلك فهي تشرك "اليدين" أيضاً.

وتُنسج الرواية العامة من ثلاثة عناصر: حكاية السبب الذي دعاني إلى القيام بما أقوم به، أي "قصتي"، وحكاية السبب الذي دعانا إلى القيام بما نقوم به، أي "قصتنا"، وحكاية الضرورة التي دعتنا للتحرك، أي "قصة الآن". وهذا التعبير عن العلاقة بين الذات والآخر والفعل هي أيضاً في صلب تقاليدنا الأخلاقية. وكما قال الشاعر الفلسطيني محمود درويش في قصيدته "جدارية":

فمن أَنا وحدي؟
حياةُ الفرد ناقصةٌ، وينقصُني
السؤالُ، فمن سأسألُ عن عبور
النهر؟ فانهضْ يا شقيقَ الملح
واحملني.*

يمكن القول بأن الرواية العامة (فن السرد الجماعي) هي فن من فنون القيادة، إذ يستخدم القادة القصة كوسيلة لإلهام الآخرين للتحرك على نحو يتجاوز الثقافات والأديان والمهن والطبقات والعصور، وكما تشير الأسئلة التي طرحها النبي موسى (المذكورة أعلاه) تتألف الرواية العامة من ثلاثة عناصر: "قصتي" و"قصتنا" و"قصة الآن". تحكي "قصتي" من أنا: قيمي وتجربتي ولماذا أقوم بما أقوم به. أما "قصتنا" فتحكي من نحن: قيمنا المشتركة وتجربتنا المشتركة ولماذا نقوم بما نقوم به. وتحوّل "قصة الآن" الحاضر إلى لحظة تحدّ وأمل واختيار.

سألت نفسي هذه الأسئلة للمرة الأولى في عام ١٩٦٤ حينما كنت أكمل سنتي الثالثة في جامعة هارفارد. كنت قد أصبحت ناشطاً في حركة الحقوق المدنية وتطوعت للانخراط في مشروع صيف الميسيسيبي. وفي الميسيسيبي وجدت واعزي الداخلي ومهمتي الشخصية التي سأسعى إلى تحقيقها على مدى السنوات الثماني والعشرين التالية ألا وهي: تنظيم عمال المزارع المهاجرين والمنظمات المجتمعية والنقابات العمالية والتأثير على السياسات الانتخابية.

ولكي أعمّق فهمي لعملي عدت في عام ١٩٩١ إلى جامعة هارفارد وأكملت دراستي الجامعية، دفعة ١٩٦٤-١٩٩٢، وحصلت على شهادة ماجستير في الإدارة العامة عام ١٩٩٣ وشهادة دكتوراه في علم الاجتماع عام ٢٠٠٠. وعندما انضممت إلى كلية كينيدي اكتشفت واعزا داخليا ثانيا كمعلم، وعالم، ونصير(مدافع). ووجدت نفسي مدفوعاً بقيم متجذرة في تجربة الحياة بحد ذاتها. القيم نفسها التي وضعتني على مساري الأول ألا وهي عمل والديّ: حاخام ومعلمة، وخبرتنا مع محرقة اليهود على أيدي النازيين، ونشأتي مع احتفالات عيد الفصح اليهودي والتحدي الذي تطرحه التعاليم القائلة أن الرحلة من العبودية إلى الحرية تتناقل من جيل إلى جيل، وعيون الشباب الناقدة وقلوبهم المفعمة بالأمل.

انشغل الباحثون في السنوات الأخيرة بدراسة فن السرد (الرواية) عبر مجالات فكرية متنوعة تشمل علم النفس، علم الاجتماع، العلوم السياسية، الفلسفة، الدراسات القانونية، علم اللاهوت، الأدب، والفنون. وتشمل المجالات المهنيةالتي تستخدم السرد (الرواية): الجيش والكهنوت والقانون والسياسة والأعمال والفنون. وتقوم هذه المنهجية على فهمنا الفطري للرواية والسرد وتحليلها خارج حدود الاختصاص الواحد وممارستها خارج حدود المهنة الواحدة.

ولاقتناعي بأن أحد التحديات الكبرى التي نواجهها أفراداً وثقافةً وأمةً يتمثل في استعادة قدرتنا على التعبير عن قيمنا العامة واستمداد الشجاعة منها والتصرف على أساسها. قمت قبل ٥ سنوات بتصميم هذه المنهجية لتكون طريقة تعلّم تستطيع من خلالها فهم كيفية ترجمة قيمنا إلى أفعال. وتضرب جذور هذه الفلسفة التربوية في طبيعة الرواية العامة: مزيج من الذات، النحن، والآن. فنحن ننمذج الرواية العامة وننخرط في التأمل في السرد، ونتعلم كيف ندعم بعضنا البعض، ونتعلم كيف نقيّم بناء على فهم عملي وتحليلي لما نقوم به. والرواية العامة ليست خطاباً عاماً، وكماعبّرت (جايانتي رافي) وهي إحدى طالباتي عن ذلك بالقول: يعلمنا هذا المساق كيف نكشف عن "توهج" داخلي بدلا من أن نطلي أنفسنا ب "بريق" خارجي.

---

* من قصيدة "جدارية" للشاعر الفلسطيني محمود درويش

الإدراك والدافع والفعل
لماذا وكيف وماذا: القلب والعقل واليدين

يقول عالم النفس (جيروم برونر) بأننا نفسر العالم بطريقتين، الأولى تحليلية والثانية سردية[١٤]. فمن خلال ترسيم إدراكنا للعالم نقوم بتحديد نماذج وتمييز الروابط واختبار العلاقات ووضع فرضيات تجريبية، أي بكلمات أخرى، نخوض في ميدان التحليل. ولكننا أيضاً نقوم بترسيم العالمبشكل فعّال ونصنف الخبرات والأشياء والرموز بناء على أساس كونهاجيدة أو سيئة بالنسبة لنا، مخيفة أو آمنة، مفعمة بالأمل أو محبطة، إلخ. وعندما نفكر في التحرك الهادف فإننا نطرح على أنفسنا سؤالين: لماذا وكيف. ويساعدنا التحليل في الإجابة على سؤال "كيف"، أي كيف نستخدم الموارد بكفاءة للكشف عن الفرص ومقارنة التكاليف وغير ذلك. ولكن حتى نجيب على سؤال "لماذا"، أي لماذا يعنينا هذا الأمر ولماذا نهتم ولماذا نعطي لهدف ما قيمة أكثر من هدف آخر؟، فإننا نلجأ إلى السرد. ولا يدور سؤال "لماذا" حول لماذا نعتقد بأنّ علينا أن نتحرك، بل حول لماذا نتحرك فعلاً ما الذي يدفعنا إلى التحرك، ما هو دافعنا وما هي قيمنا. أو كما عبّر القديس أوغسطين عن ذلك حين أشار إلى الفرق بين "معرفة" الخير بوصفه واجب و"حبّ الخير" بوصفه أصل الدافعية[١٥]. ويتطلب الأمر انخراط العقل والقلب لتحريك البدين بشكل هادف، ألا وهو مجال الفعل.

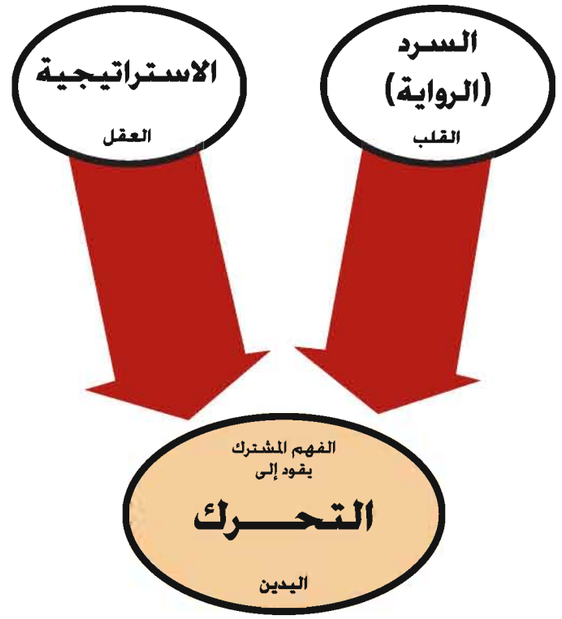

القيم، الدافعية، والتحرك

لكي نفهم **الدافعية (motivation)**- وهي ما تلهمنا التحرك-علينا أن نفكّر بكلمة **عواطف (emotion)** والجذر المشترك للكلمتين ألا وهي كلمة **(motor) أي الحركة**. ويقول علماء النفس بأن المعلومات التي تمدّنا بها عواطفنا والتي نعيشها على شكل مشاعر هي في جانب منها نفسية كما يحصل عندما تتغير وتيرة تنفسنا أو عندما تتغير درجة حرارة جسمنا، لكنها في جانب آخر منها سلوكية كما هو الحال حين نندفع لنتقدم أو لنهرب، لنقف أو لنجلس، وهي في جانب ثالث إدراكية لأننا يمكن أن نصف ما نشعر به بالخوف أو الحب أو الرغبة أو الفرح.

ونحن كذلك نختبر قيمنا من خلال عواطفنا التي تمدّنا بمعلومات حيوية حول كيف نعيش حياتنا، لا بشكل متباين عن التداول المنطقي بل على شكل شرط مسبق له.[١٦] وتقول عالمة فلسفة الأخلاق مارثا(نوسباوم) أنه ولأننا نشعر بقيمنا من خلال عواطفنا، فإن السعي لاتخاذ خيارات أخلاقية دون معلومات عاطفية سعي عقيم.[١٧] وتدعم مقولتها هذه من خلال نتائج بحث علمي تم على أشخاص يعانون من آفة في لوزة المخيخ--Amygdale وهي الجزء المركزي في الدماغ الذي يتحكم بالعواطف. فعندما يضطرون إلى اتخاذ قرارات نجد أنه بمقدورهم عرض الخيارات المختلفة واحدا تلو الآخر لكنهم لا يستطيعون اتخاذ قرار لأن القرارات في النهاية تستند على أحكام قيمية، وإذا لم نكن قادرين على اختبار العواطف لن نكون قادرين على الإحساس بالقيم التي توجهنا نحو الخيارات التي يجب أن نتخذها.

وتكبح بعض العواطف الفعل الواعي بينما البعض الآخر ييسره. ويشير خبير العلوم السياسية (جورج ماركوس) في استكشافه للعلاقة بين العاطفة والفعل الهادف إلى أمرين مرتبطين بأنظمتنا العصبية-الفيزيولوجية هما: الاستطلاع والاستعداد النفسي.[١٨] يقارن نظام **الاستطلاع** لدينا بين ما نتوقع رؤيته وما نراه فعلاً متتبعاً حالات الشذوذ التي تترجم عند مشاهدتها إلى قلق. ويضيف ماركوس بأنه بدون هذه الإشارة العاطفية فإننا ببساطة نتصرف وفق العادة. وعندما نشعر بالقلق حقاً، فتلك طريقتنا في القول لأنفسنا: إيه! أنتم! انتبهوا! هناك دبّ في الممر. والسؤال الكبير هو ما الذي نفعله بهذا القلق؟

أما نظامنا المرتبط بالإستعداد النفسي فيعمل على سلسلة لانهائية متراوحة بين الاكتئاب والحماسة، أو ما بين اليأس والأمل. وهكذا، فإذا كنا نعاني من القلق ونحن في مزاج يائس فسيبدأ خوفنا أو حنقنا بالظهور، وكلاهما لا يساعداننا على التأقلم. ومن جهة أخرى، إذا كنا متفائلين فالأرجح أن يستثير القلق فضولنا دافعاً بنا إلى الاستكشاف الذيقد يثمر تعلماً وحلاً مبدعاً للمشاكل، وبالتالي يعتمد استعدادنا للتفكير بالتحرك وقدرتنا على التمحيص به،والقدرة على التصرف وفقا له بشكل رئيسي على أحاسيسنا.

وتتطلب القيادة إشراك الآخرين في فعل هادف عبر تعبئة المشاعر التي يمكن أن تسهّل ذلك الفعل في مواجهة المشاعر التي يمكن أن تكبحه. ويمكن لهذا أن يخلق تضارباً عاطفياً أو توتراً لا يمكن حلّه إلا من خلال التحرك الفعلي. ويطلق المنظمون على هذه العملية "الانفعال." فمثلاً، إذا تصرف المسؤول عني (المعلم أو الأب أو الأم أو رب العمل) بطريقة تنتهك كرامتي، قد يتضارب شعوري بالتخوف من التسبب في إزعاج المسؤول نتيجة اعتمادي عليه مع إحساسي بالكرامة. وقد تصل سيدة ما إلى درجة كافية من الغضب لمواجهة رئيسها. لكن، بالمقابل قد تقرر سيدة أخرى أن "تبلع الإهانة"، في حين قد تقاوم أخرى المنظم الذي ينبه إلى هذا التضارب. كل خيار من هذه الخيارات له تداعياته، وكل واحد منها قد يخدم مصالح شخص ما أفضل من غيره.

وتتطلب القيادة إشراك الآخرين في فعل هادف عبر تعبئة المشاعر التي يمكن أن تسهّل ذلك الفعل في مواجهة المشاعر التي يمكن أن تكبحه. ويمكن لهذا أن يخلق تضارباً عاطفياً أو توتراً لا يمكن حلّه إلا من خلال التحرك الفعلي. ويطلق المنظمون على هذه العملية "الانفعال." فمثلاً، إذا تصرف المسؤول عني (المعلم أو الأب أو الأم أو رب العمل) بطريقة تنتهك كرامتي، قد يتضارب شعوري بالتخوف من التسبب في إزعاج المسؤول نتيجة اعتمادي عليه مع إحساسي بالكرامة. وقد تصل سيدة ما إلى درجة كافية من الغضب لمواجهة رئيسها. لكن، بالمقابل قد تقرر سيدة أخرى أن "تبلع الإهانة". في حين قد تقاوم أخرى المنظم الذي ينبه إلى هذا التضارب. كل خيار من هذه الخيارات له تداعياته، وكل واحد منها قد يخدم مصالح شخص ما أفضل من غيره.

يبين الرسم التوضيحي التالي أنه في حين يمكن للكسل وهمود العزيمة الناجَين عن الإحساس بالأمان والراحة والاعتياد على الروتين، أن يعمياننا عن رؤية المؤشرات التي تفيد بضرورة التحرك، قد تلفت **الضرورة الملحة** وأحيانا **الغضب** انتباهنا. أما **الخوف** فقد يشلّنا ويدفعنا إلى تبرير القصور عن التحرك. وإذا ما ضخمه **الشك بالنفس والعزلة** فقد نصبح ضحايا اليأس. وبالمقابل، يمكن **للأمل** أن يلهمنا ويدفعنا إلى التحرك بالتناغم مع الإحساس **بتقدير الذات(يمكنك أن تحدث فرقا) والتضامن (الحب والتعاطف).**

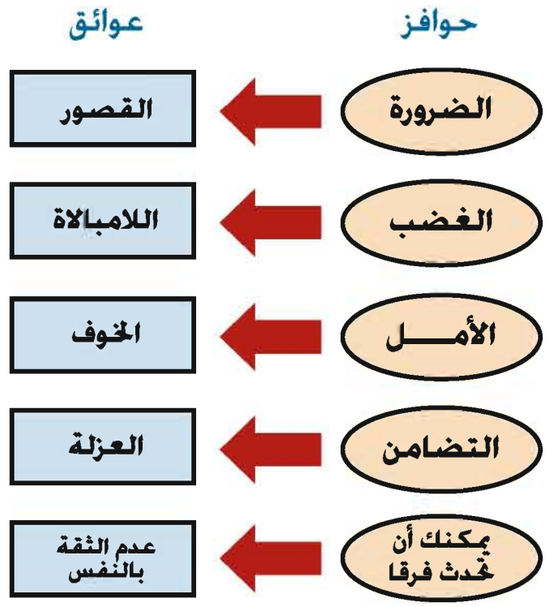

ومن شأن الضرورة الملحة التي تلفت انتباهنا أن تخلق فضاء لفعل جديد لا يتعلق بالوقت قدر تعلقه بالأولوية. فتحل الحاجة الملحة لمعالجة مشكلة غداً محل الحاجة المهمة المتعلقة بتحديد مسارك المستقبلي. وتحل الحاجة الملحة إلى الذهاب إلى البيت (لأن أحد أفراد العائلة مصاب بمرض شديد) محل الحاجة المهمة لحضور اجتماع العمل التالي (أو ربما يجب أن يكون الوضع كذلك). وتحل الحاجة الملحة لتكريس يوم للبقاء مع الناخبين في انتخابات مهمة محل الحاجة المهمة لمراجعة ميزانية العائلة. ويكفي الالتزام وتركيز الطاقة لإطلاق أي شيء جديد. وغالبا ما يكون خلق شعور بالضرورة الملحة طريقة للحصول على الالتزام المكثف المطلوب.

وماذا عن ابن عم القصور، ألا وهو **اللامبالاة؟** يشكل الغضب أحد الطرق لمواجهة اللامبالاة -**الغضب** وليس الحنق، بل الغضب والسخط على الظلم. وينمو الغضب البنّاء انطلاقا من المعاناة المتأتية من **معرفة الفرق بين ما يجب أن يكون وبين الحالة الفعلية.** أي الطريقة التي نشعر بها حين ينتهك نظامنا الأخلاقي[١٩]. يصف عالم الاجتماع (بيل جامسون) ذلك باستخدام "إطار الظلم" في مواجهة "إطارالشرعية"[٢٠]. وكما علّمنا علماء "الاقتصاد الأخلاقي" قلما يحتشد الناس للاحتجاج على عدم المساواة فقط لكونه غياب للمساواة، إنما يحتشدون للاحتجاج على عدم المساواة عندما تتحول إلى "ظلم"[٢١]. بعبارة أخرى، قد تكون قيمنا وتقاليدنا الأخلاقية وإحساسنا بالكرامة مصادر حاسمة لتحقيق الدافعية نحو التحرك.

أين يمكن أن نجد **الشجاعة** للتحرك رغم **الخوف؟** إنّ محاولة القضاء على كل ما يسبب لنا الخوف لهو سعي أحمق لأنه يضع مصدر خوفنا خارج أنفسنا بدلاً من مكانه الحقيقي: في قلوبنا. ولن تفيدنا محاولة سحب الخوف من نفوسنا إذا كانت تعني أن تحكم تصرفاتنا العصبية أكثر من العقل. ويمكن للقادة أن"يحصّنوا" الآخرين من خلال تحذيرهم بأن المعارضة ستهددهم بهذا وتسعى لكسب ودهم بذاك. وتكشف حقيقة كون هذه التصرفات متوقعة عن أن تحركات المعارضة أيضا متوقعة مما يقلل من أسباب الخوف منها. أما على أرض الواقع، فتتمثل الشجاعة في اتخاذ قرار التحرك رغم الخوف. وقد يكون **الأمل** هو العاطفة الأكثر أهمية من بين العواطف التي تساعدنا على استجماع الشجاعة.

إلى أين نتوجه للحصول على بعض الأمل؟ تشكل تجربة "الحلول الموثوقة" أوقصص نجاح في أماكن أخريوخبرات مباشرة لنجاحات صغيرة وانتصارات صغيرة مصادر للأمل. ومن مصادر الأمل الأخرى المهمة للعديد من الناس التقاليد المرتبطة بالإيمان. المعتقدات الروحانية والتقاليد الثقافية والفهم الأخلاقي. لقد استمدّت العديد من الحركات الاجتماعية العظيمة (غاندي وحركة الحقوق المدنية وحركة التضامن) قوتها من التقاليد الدينية. كما يجريالكثير من التنظيم في عالم اليوم في مجتمعات يجمعها الإيمان. وتعطينا العلاقات مصدرا آخر للأمل. فكلنا نعرف أشخاصاً يبثون فينا روح الأمل بمجرد وجودنا بالقرب منهم. ويمكن اعتبار "الكاريزما" على أنها القدرة على إعطاء الآخرين إحساسا بالأمل، على إلهامهم بأن يؤمنوا بأنفسهم. ويولي علماء النفس الذين بدأوا باستكشاف دور "العواطف الايجابية" أهمية خاصة إلى "علم نفس الأمل."[٢٢]وقد عبّر الفيلسوف اليهودي (موسى بن ميمون) في القرن الثاني عشر الميلادي عن ذلك على نحو فلسفي أكثر بقوله أن الأمل هو إيمان في "معقولية الممكن" مقابل "ضرورة المحتمل"[٢٣].

يتصدى القادة لعدم الثقة بالتركيز على النجاعة الذاتية للآخرين، خالقين إحساسا بأنك **قادر على إحداث فرق.** ومن ضمن وسائل بث هذه العاطفة تأطير الفعل على أساس **ما الذي يستطيع الناس القيام به لا** على أساس ما الذي لا يستطيعون القيام به. ولو قام منظم بوضع خطة تتطلب من كل متطوع جديد أن يجنّد ١٠٠ شخص دون أن يقدم له الإرشاد أو التدريب أو التمرين لن ينتج عن ذلك سوى تعميق مشاعر عدم الثقة بالنفس. فالتقدير القائم على الإنجاز الفعلي وليس على الإطراء الفارغ يمكن أن يكون مفيدا، أي بكلمات أخرى، لا تقدير حقيقي دون **مساءلة.** ولا تعني المساءلة عدم الثقة بل هي دليل على أن ما يقوم به الشخص ذو أهمية فعلاً.

وأخيراً يستطيع القادة أن يتصدوا لمشاعر العزلة من خلال تجربة **المحبة** أو **التضامن.** وهنا يكمن دور اللقاءات الجماهيرية والاحتفالات والغناء واللباس الموحد واللغة المشتركة.

وقد لا يكون للطريقة التي نشعر بها نحو الأمور سوى علاقة طفيفة مع الحاضر، وهي بالأحرى إرث من الدروس المكتسبة عبر الزمان. فلنفترض أنك تبلغ من العمر أربع سنوات وتلعب على أرجوحة في الحديقة، عندما يحاول طفل أكبر منك سناً إبعادك عنها من الأرجح أن تركض إلى والدك طالباً المساعدة، وقد يقابل والدك ذلك بالضحك. ستشعر في تلك اللحظة بالغضب والإحراج، مقتنعاً بأن والدك لا يبالي بك، وهكذا تتعلم درساً مفاده أن الاعتماد على الآخرين فكرة سيئة، وبعد أن تصبح ناضجا وبالغا ستجد أنك في معرض تقييمك لما ستقوم به إزاء تخفيض الأجور على سبيل المثال، ستقلل تجربتك السابقة من احتمالات أن تنضم إلى العمال الآخرين للاحتجاج. فأنت تخاف من الاعتماد على الآخرين، بل قد تقول في نفسك أنك تستحق ذلك التخفيض في الأجر. فإذا كنت ما زلت في قبضة ذلك الخوف، ويدنو منك منظم ليقول لك أنك تستطيع بالتعاون مع النقابة منع رب العمل من تخفيض أجرك فإنك سترى في هذا المنظم تهديدا لك وستشك في مزاعمه وستعتبر أن ما يقترحه بلا فائدة.

وهكذا تتطلب ممارسة القيادة الخوض في **حوار عاطفي** مبنيا على مجموعة من العواطف (أو القيم) التي تجد قاعدة لها في مجموعة من التجارب حتى تواجه مجموعة أخرى من العواطف (أو القيم) التي تجد قاعدة لها في تجارب أخرى- أي نوع من **الحوار القلبي.** وحوار القلب هذا بعيد كل البعد عن اللاعقلانية، ويمكن أن يستعيد خيارات هُجرت في لحظة اليأس.

قوة القصة

القصة هي عبارة عن الشكل الاستطرادي الذي نترجم من خلاله القيم إلى فعل. وتتألف القصة من ثلاثة عناصر: **الحبكة والشخصية والعبرة.** ويتوقف تأثير القصة على **خلفية المشهد (السياق):** من يحكي القصة ومن يستمع وأين هم ولماذا هم هناك ومتى.

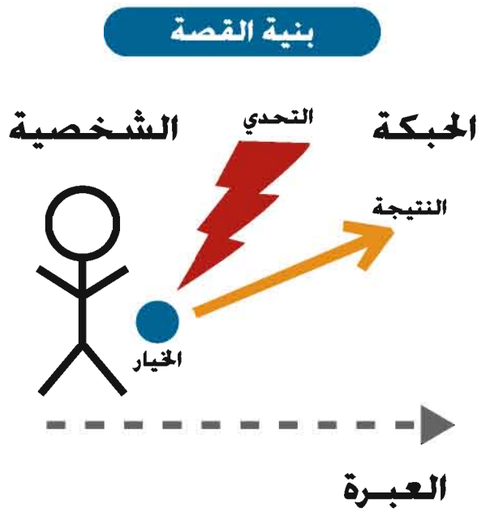

الحبكة

تشغلنا**الحبكة** وتأسر اهتمامنا وتنبهنا. "استيقظت هذا الصباح وتناولت فطوري وأتيت إلى المدرسة." هل هذه حبكة؟ ولماذا؟

وماذا عن: "كنت أتناول فطوري هذا الصباح عندما سمعت صرخة مدوية قادمة منالسطح. في تلك اللحظة بالذات نظرت إلى الخارج إلى مكان وقوف سيارتي لأجدها قد اختفت!!!"" ما الذي يجري هنا؟ ما الفرق بين الجملتين؟

تبدأ القصة، يتحرك ممثل نحو هدف منشود، ثم يظهر نوع من التحدي، وفجأة تذهب الخطة هباء وعلى الممثل أن يكتشف ما يتوجب عليه فعله. وهنا يزداد اهتمامنا: نريد أن نكتشف ما سيحدث.

ولكن لماذا نهتم؟ يحدد تعاملنا مع كل ما هو مجهول - سواء كان صغيرا أم كبيرا - نسيج حياتنا بأكملها. نفدت التذاكر في صالة السينما. أنت على وشك أن تفقد عملك، زواجك على حافة الانهيار: دائما ما تواجهنا أمورا غير متوقعة. وعلينا أن نقرر ما سنفعله. لكن ما هو أكبر مصدر لعدم اليقين من حولنا؟ إنه الأشخاص الآخرون. وتدور معظم القصص حول كيفية تفاعلنا مع الآخرين.

نتخذ كبشر خيارات آنية بناء على ما نذكره من الماضي وما نتخيله في المستقبل. هذا هو بالضبط معنى أن تكون وسيطا/محرّكا. أمّا عندما نتصرف بشكل تلقائي (وفقا للعادة) فإننا لا نختار، بل نتبع الروتين فحسب. ونتخذ قرارات حقيقية فقط عندما ينهار الروتين وعندما تكون الإرشادات غير واضحة وعندما لا يخبرنا أحد بما علينا أن نقوم به. عندها فقط نبدأ بتشكيل حياتنا ومجتمعاتنا ومستقبلنا. وبعد ذلك نصبح نحن وسطاء مصيرنا الخاص. وهذه اللحظات يمكن لها أن تكون مخيفة بقدر ما هي منعشة.

وتتألف الحبكة من ثلاثة عناصر: **التحدي،والاختيار،والنتيج.** ونتعلم كيف نتعامل مع غير المتوقع من خلال معالجة الحبكة. يذكر باحثون أن معظم الوقت الذي يقضيه الأهل مع الأطفال الصغار يتمثل في حكاية قصص: قصص العائلة وقصص الطفل وقصص الجيران. ويصف برونر ذلك بأنه **تدريب على الوساطة الفاعلة (agency):** الطريقة التي نتعلم فيها كيف نعالج الخيارات في مواجهة حالة عدم اليقين. ولأن لدينا فضول غير محدود إزاء المجهول وغير المتوقع، فإننا نستثمر مليارات الدولارات وعددا لا حصر له من الساعات في صناعة ومشاهدة الأفلام وإنتاج وقراءة الأدب والترتيب وحضور المناسبات الرياضية، ناهيك عن الطقوس الدينية والنشاطات الثقافية والإحتفالات الوطنية.

الشخصية

على الرغم من أن القصة تتطلب حبكة إلا أنها لن تنجح إلا إذا تمكنا من التماثل مع الشخصية. ومن خلال هذا التماثل التعاطفي مع البطل/البطلة نختبر المحتوى العاطفي للقصة. وبهذه الطريقة نتعلم الدرسالمرجو من القصة بقلوبنا لا بعقولنا فحسب. وكما كتب أرسطو عن المأساة (التراجيديا) اليونانية. هذه هي الطريقة التي يمكن أن تمسنا بها تجربة بطل القصة وربما تفتح أعيننا[٢٤].فتقنعنا الحجج عندما يدعمها الدليل والمنطق والبيانات. أما القصص فتقنعنا بواسطة ذلك التماثل التعاطفي. هل سبق أن ذهبت لمشاهدة فيلم سينمائي ولم تتمكن من التماثل مع أي شخصية من شخصياته؟ من الأرجح أن تكون قد وجدته فيلما مملاً. وقد نتماثل أحياناً مع أبطال لا "يشبهوننا" إلا على نحو ملتبس، مثل "توم وجيري"في أفلام الكرتون. وقد نتماثل أحيانا مع أبطال يشبهوننا كثيراً، كما في القصص عن أصدقائنا وأقاربنا وجيراننا. وقد نكون في أحيان أخرى نحن أبطال القصة كما يحدث عندما نجد أنفسنا في وسط قصة تتكشف تدريجيا ونؤلف نحن خاتمتها.

العبرة

نتعلم من القصص، وقد سمعنا جميعاً تلك النهاية التي تقول: والعبرة من هذه القصة هي... هل سبق وكنت في حفلة وبدأ شخص ما يحكي قصة واستمر يحكي.. ويحكي.. ويحكي... حتى قال له أحدهم: "هات لنا من الآخر!" نحن نحكي القصص لأن لدينا شيئا نريد أن نقوله ونستثير ردود فعل عليه.

تتمثل العبرة من القصة الناجحة في الفهم الشعوري الذي نختبره وليس الفهم النظري فحسب، فهي درس للقلب لا للعقل فقط. وفي الأغلب تبدو العبر النظرية مبتذلة، فلا ينقل قول "في العجلة الندامة" الخبرة الشعورية الناجّة عن فقدان شيء ما بسبب السرعة الزائدة. لكنها يمكن أن تذكرنا بذلك الشعور الذي تعلمناه من خلال القصة التي علمتنا هذا الدرس. كما لا يمكننا أن نتوقع من العبر أن تزودنا بمعلومات تفصيلية، فنحن مثلا لا نحكي حكاية عقلة الإصبع لأنها تعلمنا كيف نجد طريقنا في الغابة، بل لأننا نتعلم من هذه القصة أنه بمقدور "فتى صغير" يتمتع بالشجاعة والحيلة والخيال أن يتغلب على "الغول العملاق". نستطيع من خلال القصة أن نستشعر غضب (عقلة) وشجاعته وحيلته كما نستشعر بالأمل في حياتنا الخاصة لأنه انتصر. وهكذا تعلمنا القصص كيف نتعامل مع عواطفنا لا أن نكبتها لكي نتمكن منمواجهة تحدياتنا الخاصة بفعالية.

وتعلمنا القصص كيف نتصرف بالطريقة "الصحيحة". فهي ليست مجرد أمثلة وتوضيحات. وعندما تحكى القصص بشكل جيد فإننا نعيش فعلاً الفكرة منها، ونشعر بالأمل،وهذه هي التجربة التي يمكن أن تدفعنا إلى التحرك، لا الكلمات التي ترويها.

خلفية المشهد (السياق)

نروي القصص، ليس كخيط غير منظوم من الكلمات والصور والعبارات، ولا كرسائل أو جمل قصيرة أو سمات - على الرغم من أن هذه الصيغ البلاغية قد تشير إلى قصة، بل كعملية علائقية: فبينما نحن نستمع إلى القصة نقوم بتقييمها، وقد نواجه سهولة أو صعوبة في الدخول إلى عالم القصة اعتماداً على الراوي. هل هي قصته/ها؟ قد نسمعها بطريقة ما فنتساءل: هل هي قصة صديق أم زميل أم أحد أفراد الأسرة؟ ثم نسمعها بطريقة أخرى، فنسأل: هل هي قصة خارج الزمان والمكان والخصوصية؟ ثم نخطو خطوة إلى الوراء. هل هي قصة مشتركة؟ قد تكون قصة من القرآن أو من الأحاديث النبوية؟ ربما يجب أن نتقرب أكثر من بعضنا البعض. يتمثل حكي القصص في الكيفية التي نتفاعل فيها حول القيم، كيف نتشارك بالتجارب، وكيف نقدم النصح والمشورة، ونبعث الراحة في نفوس بعضنا البعض، ونلهم بعضنا البعض التحرك.

الرواية العامة: "قصتي" و"قصتنا" و"قصة الآن"

غالباً ما تتطلب القيادة، ولاسيما القيادة من أجل التغيير الإجتماعي، حكاية قصة جديدة أو مواءمة قصة قديمة: "قصتي" و"قصتنا" و"قصة الآن".تبيّن "قصتي" القيم التي تدعوني للتحرك، أما "قصتنا" فتبين القيم المشتركة مع أولئك الذين نأمل تحفيزهم للتحرك، بينما تبين "قصة الآن" التحدي الملحّ الذي يواجه تلك القيم ويتطلب التحرك الفوري. وغالبا ما تتطلب المشاركة في تحرك اجتماعي إعادة سرد "قصتي" و"قصتنا" و"قصة الآن"، ليس ذلك فحسب، بل وتشكل علامة فارقة في الدخول إلى عالم مجهول، وهي بحد ذاتها تجربة مفزعة تتطلب القدرة على الوصول إلى منابع الأمل،وللتوضيح، سنأخذ أمثلة من الدقائق السبع الأولى من خطاب السيناتور باراك أوباما أمام المؤتمر الوطني للحزب الديمقراطي في تموز العام ٢٠٠٤.

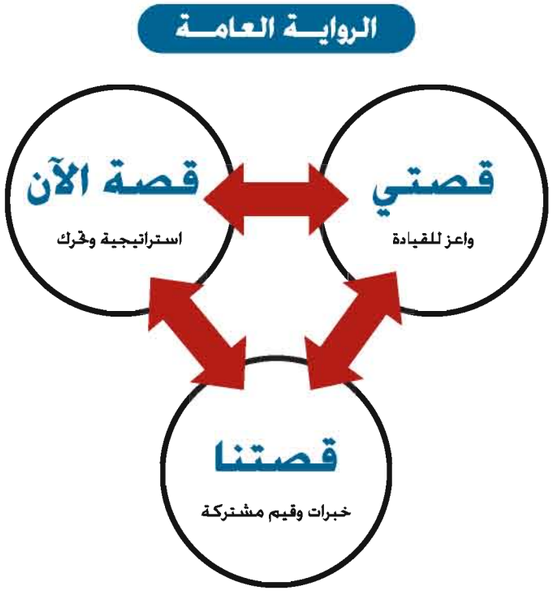

قصتي

نحكي قصتنا الشخصية لنشارك الآخرين بالقيم التي تحدد ماهيتنا- لا على شكل مبادئ مجردة بل على شكل تجربة حياة، وعادة مانشكّل قصصنا عن أنفسنا حول نقاط الاختيار، أي اللحظات التي واجهنا فيها تحدياً ما وقمنا بالاختيار واختبرنا نتيجة وتعلّمنا عبرة، ونعبّر عن القيم التي حفّزتنا عبر الانتقاء من بين **نقاط الاختيار** تلك وحكاية ما حدث. ولأن حكي القصص عملية اجتماعية فإننا نربط ذكريات المستمع وذكرياتنا الخاصة في الوقت الذي نتعلم فيه كيف نوائم "قصتنا" استجابة للحوار مع المستمع حتى يكون التواصل ناجحاً. وتشبه هذه العملية الأحجية التي تقول: "من اكتشف المياه؟ والإجابة هي: لا أعرف لكن من المؤكد انها لم تكن سمكة." إذ يمكن للشخص الآخر أن "يرسم خطوط الوصل بين النقاط" التي لم نربطها ببعضها البعض لأننا مستغرقون في قصتنا الخاصة إلى حدّ أننا لم نتعلم الإفصاح عنها بوضوح.

وبعبارة أخرى، نحن نبني هويتنا على أنها قصتنا. وما هو فريد في هذه القصة أنها ليست مزيجاً من التصنيفات (العرق والجنس والطبقة والمهنة والحالة الاجتماعية)، بل هي رحلتنا، مسيرتنا عبر الحياة، نصّنا الشخصي الذي يمكن لكل منا أن يستخدمه ليعلم الآخرين.

والقصة مثل القصيدة، فلايحرّك المشاعر طولها أو بلاغتها أوتعقيدها، بل كونها تقدم لنا خبرة أو لحظة نفهم من خلالها إحساس أو بصيرة الشاعر، وكلما كانت التفاصيل التي نختار أن نحكيها محددة أكثر كلما تمكنا من التأثير على المستمعين وتمكنا من التعبير عن قيمنا بشكل واضح، وهو ما يطلق عليه عالم فلسفة الأخلاق تشارلز تايلور "مصادرنا الأخلاقية"[٢٥]. ومثل القصيدة، يمكن للقصة أن تفتح بوابة إلى عوالم سامية.

ويختلف الكلام عن القصة عن رواية القصة، فعندما نحكي قصة نمكّن المستمع من الدخول إلى زمانها ومكانها معنا، من رؤية ما نرى، وسماع ما نسمع، والشعور بما نشعر به. أخبرني صديق مثل مرةً أن سرّ المهنة يكمن في استخدام الزمن الحاضر طوال الوقت وتفادي استخدام حرف العطف "و": أدخل الغرفة. الغرفة معتمة. أسمع صوتاً. إلخ.

قد يعتقد البعض أن قصصنا الشخصية غير ذات أهمية وأن الآخرين لن يأبهوا بها أو أننا لا يجب أن نتحدث عن أنفسنا كثيراً، على العكس من ذلك تماما، فإذا كنا نقوم بعمل اجتماعي/جماهيري علينا مسؤولية إعطاء فكرة اجتماعية عن أنفسنا: من أين نحن ولماذا نقوم بما نقوم به، وإلى أين نظن أننا ماضون. ولا مفرّ أمامنا عندما نكون في موقع قيادي اجتماعي من رواية قصصنا الشخصية. فإذا لم نحكي قصتنا سيحكيها الآخرون نيابة عنا، وقد يرووها بطرق لا تعجبنا، ليس بدواعي الأذية بالضرورة بل لأن الآخرين يحاولون أن يفهموا من نحن انطلاقا من خبرتهم مع أشخاص يعتقدون أنهم يشبهوننا.

ويقول أرسطو أن للبلاغة ثلاثة مكونات هي: التوجه للعقل الأول (logos) وإثارة التعاطف (pathos) وتحديد الروح (الشخصية) (ethos)[٢٦]. فالتوجه للعقل الأول هو منطق الجدل، وإثارة التعاطف هو الهدف من الجدال، والروح الجمعية هي مصداقية الشخص الذي يقدم الحجج –قصته عن نفسه.

وقد ظهرت كلمة بلاغة في تاريخ وصف الخطاب في اللغة العربية في الحقل نفسة الذي ظهرت فيه في وصف الخطاب في الحضارة الغربية عند اليونان، وهو الخطابة. وتفرعت البلاغة عن البيان؛ فتحول البيان إلى بلاغة يعني تقديم الإفهام على الفهم، إن لم يعن التخلي عن الفهم لصالح الإفهام نهائيا، أي الخروج من نظرية المعرفة إلى نظرية الإقناع. ويفيد الباحث محمد العمري بأن "البلاغة هي العلم المؤهل لتحقيق تخاطب إيجابي في المقامات الملتبسة، ليس ببيان كيفية الدفاع عن الحقوق فحسب، كما كان مبتدأ أمرها عند اليونان، ولكن بكشف أساليب التضليل والمغالطة الهادفة إلى سلبها أيضا."

وغالبا ما تكون الحركات الاجتماعية "البوتقة" التي يتعلم المشاركون فيها كيف يحكوا قصصا جديدة عن أنفسهم بينما يتفاعلون مع الآخرين. وقد تنطوي القصص الشخصية على حدّ لأن دوافع المشاركة في التغيير الاجتماعي غالباً ما تكون مزيجا من الألم والأمل. ويعني ذلك من منظور شخصي أن معظم المشاركين لديهم قصص عن الألم والأمل، وإذا لم نتكلم بما يكفي عن قصصنا المؤلمة قد يستغرقنا وقتا كي نتعلم كيف نتعامل مع هذا الألم، وإذا كان الآخرون يحاولون أن يفهموا لماذا نقوم بما نقوم به– ولم نخبرهم عن هذه القصص المؤلمة- ستفتقد حكايتنا المصداقية مما سيثير الشك حول بقية القصة.

شاركت النساء في بداية الحركة النسوية في نقاشات "التوعية" الجماعية التي كانت وسيطا لتغيير قصصهن عن أنفسهن، وعن هويتهن كنساء، وكان بالإمكان التشارك بقصص الألم والأمل في آن واحد. أما في حركة الحقوق المدنية فكان على السود الذين يعيشون في أعماق الجنوب ويخافون من المطالبة بحق التصويت أن يدعموا بعضهم البعض كي يستجمعوا الشجاعة الضرورية للمطالبة بحقوقهم، وهو أمر ما إن قاموا به حتى بدأوا يغيروا طريقة تفكيرهم عن أنفسهم، وكيف يتعاملوا مع أبنائهم ومع البيض ومع بعضهم البعض.

يحكي السيناتور أوباما في "قصتي" ثلاث نقاط اختيار أساسية وهي: قرار جده بإرسال ابنه إلى أمريكا للدراسة، وقرار والده "بعيد الاحتمال" بالزواج، وقرار والده بتسميته باراك، وهي كلمة مشتقة من "البركة"، وهو تعبير عن الإيمان بأمريكا المتسامحة والكريمة. يعبّر كل خيار من هذه الخيارات عن الشجاعة والأمل والاهتمام، هو إذا لا يخبرنا بأي شيء عن سيرته الذاتية مفضلا أن يعرف عن نفسه من خلال سرد يوضح من أين جاء وكيف أصبح على ما هو عليه الآن، لكي نشكل فكرة عن مستقبله.

قصتنا

تتداخل "قصتي" مع "قصتنا، فنحن نشكل جزءامنمجموعات عدة: العائلة والمجتمع والدين والمؤسسة والمهنة والأمة والحركة. تعبّر "قصتنا" عن القيم والتجارب التي نتشارك بها ونأمل أن نستحضرها في الوقت المناسب. لا تحكي "قصتنا" قيم مجتمعنا فقط، بل يمكن أيضاً أن تميّز مجتمعنا عن غيره، وهي بالتالي تخفض درجة عدم اليقين حول ما نتوقعه من أولئك الذين نتفاعل معهم. وغالباً ما يصف علماء الاجتماع "قصتنا" بأنها هوية جماعية[٢٧].

ثقافاتنا مستودعات قصص: قصص عن التحديات التي واجهناها وكيف تصدينا لها وكيف نجحنا في البقاء، كلها متضمنة في نسيج ثقافتنا السياسية وتقاليدنا الدينية وما إلى ذلك. ونحكي هذه القصص مرة تلو الأخرى على شكل أقوال شعبية وأغانٍ وممارسات دينية واحتفالات (كعيد الفصح المسيحي وعيد الأضحى الإسلامي). و"قصتنا"، مثلها في ذلك مثل القصص الفردية، يمكن أن تلهم وتعلم وتمنح الأمل وتنبه وما إلى ذلك. كما أننا ننسج قصصا جديدة من القصص القديمة، فقصة حمامتي الغار (القصة التي تقول حين وصل المشركون إلى غار ثور وهم يقتفون آثار الرسول عليه السلام وصاحبه رضي الله عنه، إذا بالعنكبوت قد نسجت على باب الغار، وإذا حمامتان قد باضتا ورقدتا على البيض، مما أقنع قريشاً بأنه لا أحد في الغار)، ومع أن الكثيرين اعتبروا بأن هذه القصة غير صحيحة، إلا أنها ما زالت تتداول لأن الأمر يتعلق برموز عميقة في النفس الإنسانية إذ الحمامة رمز للسلام، وكثيرا ما نسمع تعبير"حمامة السلام".

ولكي يتحول التجمع إلى مجموعة نحتاج إلى حكواتي، إلى شخص يترجم الخبرة الجماعية المشتركة. فعلى سبيل المثال، قد يجد الموظفون في مكان العمل أنفسهم يعملون في مواقع متقاربة لكنهم لا يتفاعلون فيما بينهم، ولا يمضون أي وقت مع بعضهم البعض بعد ساعات الدوام ولا يأكلون معا: بكلمات أخرى، لا يطورون أبدا "قصة من نحن". وفي أي حركة اجتماعية يكون التعبير عن الخبرات الجديدة التي تكتسبها الحركة وظيفة أساسية من وظائف القيادة، وكما هو حال "قصتي"، تنبنى "قصتنا" حول نقاط الاختيار، أي الأسس والخيارات المتخذة والتحديات التي واجهتنا والنتائج والدروس المستخلصة.

ينتقل السيناتور أوباما في خطابه إلى القصة الجماعية" عندما يعلن: "قصتي هي جزء من القصة الأمريكية" ويتابع ليسرد القيم الأمريكية التي يشترك فيها مع المستمعين، أي الأشخاص الموجودين في القاعة والأشخاص الذين يشاهدونه على التلفزيون والذين سيقرؤون خطابه في اليوم التالي، ويعود إلى البداية، إلى الخيارات التي قام بها الآباء المؤسسون لهذه الأمة، البداية التي ترد في إعلان الاستقلال الذي يشكل أساسا لقيمة المساواة على نحو خاص، وبعد ذلك يسرد سلسلة من اللحظات التي تستحضر القيم المشتركة مع جمهوره.

"قصة الآن"

تتحدث "قصة الآن" عن حدّ ملحّ أو تهديد للقيم التي نتشارك بها ويتطلب التحرك الفوري: ما الخيارات التي يجب أن نتخذها؟ أين تكمن المخاطر؟ وأين مكمن الأمل؟

نحن أبطال "قصة الآن"، وخياراتنا هي التي تشكل النتيجة، ونستخدم "مصادرنا الأخلاقية" لنجد الشجاعة والأمل وربما التعاطف كي نتمكن من الاستجابة للتحديات، يعدّ خطاب د. مارتن لوثر كينغ الذي ألقاه في واشنطن العاصمة يوم ٢٣ آب ١٩٦٣ واحداً من أقوى التعبيرات عن "قصة الآن" ويعرف هذا الخطاب بخطاب "لدي حلم". لكن غالباً ما ينسى الناس أن ما سبق ذلك الحلم كان كابوساً: تداعيات فشل أمريكا البيضاء في الإيفاء بوعودها للأمريكيين من أصل أفريقي. ويقول كينغ بأن اللحظة قد حانت بفعل "الضرورة الآنية" لأنّه لم يعد بالإمكان تأجيل سداد هذا الدين."[٢٨] لو لم نتحرك لأصبح الكابوس أسوأ –لنا جميعاً- ولما كان تحول إلى حلم.

وفي "قصة الآن" تتداخل القصة والإستراتيجية لأن العنصر **الأساسي في الأمل هو وجود استراتيجية، أي رؤية لكيفية الانتقال من هنا إلى هناك.** ولا يمكن أن يكون "الخيار" المعروض على شاكلة: يجب علينا جميعا أن نقرر أن نصبح بشراً أفضل، أو: يجب علينا أن نختار أحد الخيارات الـ٥٣ المدرجة على هذه القائمة، إذ نجد أن كلا الطرحين مبتذل، أما الخيار المعقول فيكون على شاكلة "يجب علينا أن نختار جميعاً: هل نلتزم بمقاطعة الحافلات حتى ينتهي الفصل العنصري؟" يجب أن يكون الطموح محددا وليس مجرداً، ما هي الرؤية؟ في حملة "صار وقتها"، وهي حملة قادها طلاب ذوي اعاقة في الجامعة الأردنية بهدف توفير البيئة المهيأة مكانيا وتعليميا للطلاب، وفي قصتهم وتواصلهم مع الناس، لم يقدّموا أملا غامضا بسعادة وراحة أكثر للطلاب ذوي الاعاقة في المستقبل، بل وصفوا شكل التغيير الذي سيصلون اليه: "طلاّب ذوي اعاقات حركية يستطيعون الوصول لمحاضراتهم في الوقت المناسب لتوفر مسطحات ومصاعد في الكليات وبينها"، أو "طلاب ذوي اعاقة بصرّية يحملون الكتب الدراسية بلغة بريل منذ بداية الفصل ويقدمون الامتحانات على شاشات ناطقة"..الخ. وبعد صور النجاح هذه تحدثوا عما يجب أن نقوم به لتصبح هذه الصور حقيقة، طلبهم إذا كان واضحا ومحددا، وهو التوقيع على عريضة تحمل مطالب التغيير لرئاسة الجامعة.

يمكن أن تتكشف الرؤية المبنية على الأمل شيئا فشيئا، ويمكن أن تبدأ بإقناع العدد المطلوب من الحضور للمشاركة في الاجتماع الذي التزمت به، يمكن أن تحقق نصراً "صغيراً" يظهر أن التغيير ممكن، كما يمكن لنصر صغير أن **يصبح** مصدر أمل إذا ما فُهم على أنه جزء من رؤية أكبر، في حملة بيوت آمنة في جبل النظيف في مدينة عمان في الأردن، يحتفل مجتمع الحملة بأمان بيوتهم كل ثلاث أشهر من خلال حفل جماعي تقف فيه الامهات والأباء والابناء على منصة سموها منصة البوح، يشاركون الجميع بشهادة شخصية في كيف تحول بيتهم الى بيت آمن.

لن نجد الأمل في تزييف الحقائق، بل في المعنى الذي نضفيه على الحقائق، فالملك هنري الخامس في مسرحية شكسبير يبعث الأمل في قلوب رجاله لأنه يقدم لهم نظرة مختلفة لأنفسهم، فهم لم يعودوا ثلّة من الجنود المهلهلين يقودهم ملك شاب عديم الخبرة في ركن مجهول من فرنسا وعلى وشك أن تسحقه قوة كاسحة، هم الآن "ثلّة سعيدة" متحدون مع ملكهم ومتضامنون فيما بينهم وأمامهم فرصة الحصول على الخلود ليصبحوا أسطورة زمانهم وذخراً لأبنائهم وأحفادهم[٢٩]، هذا وقتهم. "قصة الآن" هي تلك اللحظة التي تتداخل فيها القصة (لماذا) والإستراتيجية (كيف) والتي فيها "يمكن للعدالة أن تنهض، وللأمل والتاريخ أن يتناغما"، وحسب كلمات الشاعر شيموس هيني[٣٠]"يمكن للعدالة أن تنهض، ويعيش الأمل والتاريخ في قافية واحدة."ولكي يكون التحرك ذو مصداقية يجب أن يبدأ هنا تماماً والآن تماماً وفي هذه الغرفة بفعلٍ يمكن لكل منا أن يقوم به، إنها حكاية إستراتيجية ذات مصداقية تسرد الآليات–منطلقةً من مَنْ نحن وأين نحن، وكيف يمكننا أن نمضي خطوةً فخطوة إلى حيث نريد أن نكون، يمكن لتحركنا أن يستدعي تحركات من الآخرين والتي يمكن بدورها أن تستدعي تحركات من غيرهم، ويمكن لكل هذه التحركات معاً أن تنجز اليوم، وهذا يشبه أغنية المظاهرات القديمة التي كان بيت سيجر يغنيها:

لا تستطيع يدان أن تهدما سجنا
ولا يمكن لأربعة أيدي أن تهدم سجنا
ولكن إذا كانت اثنتان واثنتان وخمسون تصنع مليونا
فإن ذاك اليوم آت لا محالة
ذاك اليوم آت لا محالة[٣١].

ينتقل خطاب السيناتور أوباما بعد ذلك إلى "قصة الآن" الخاصة به حين يقول: "هناك المزيد من الجهد الذي مازال علينا بذله". بعد أن تشاطرنا تجربة القيم التي نتماثل فيها مع أمريكا في أفضل حالاتها، يواجهنا أوباما بحقيقة أن هذه القيم لم تتحقق على أرض الواقع، ويحكي لنا بعد ذلك قصصا عن أشخاص محددين في أماكن محددة لديهم مشاكل محددة، وحين نتماثل مع كل واحد منهم يذكرنا تعاطفنا معهم بالألم الذي شعرنا به في حياتنا، لكنه بالإضافة إلى ذلك يذكرنا أن كل ذلك يمكن أن يتغير، ونحن نعرف أنه يمكن أن يتغير، وأنه يمكن أن يتغير لأن لدينا طريقة للقيام بالتغيير، إذا اخترنا أن نقوم به، وتتمثل تلك الطريقةفي دعم انتخاب السيناتور جون كيري.

وعلى الرغم من أن الجزء الأخير لم يجر حسب المشتهى، تبقى المسألة أنه اختتم قصته بخيار محدد تماما يدعونا إلى القيام به.

يمكن من خلال الرواية العامة للقادة –والمشاركين- أن ينتقلوا إلى الفعل والقدرة على التحرك عبر تعبئة مصادر التحفيز وبناء هويات فردية وجماعية مشتركة جديدة وإيجاد الشجاعة للقيام بتحرك ذي معنى.

الاحتفال

نحكي الكثير من القصص خلال الاحتفالات، والاحتفال ليس حفلة، إنه طريقة يجتمع من خلالها أفراد مجتمع ما معا لتكريم أنفسهم، ولو بشكل رمزي، وتكريم عملهم، ومسارهم، قد تجري الاحتفالات في أوقات الحزن كما في أوقات الفرح، وتنطوي الاحتفالات على شعائر تتيح لنا المشاركة في رسمرؤية لمجتمعنا، حتى ولو كانت في قلوبنا فقط، ونجد أن المؤسسات التي تمكنت من الحفاظ على حيويتها غنية بالاحتفالات.

تكون رواية القصص في أفضل تجلياتها في البدايات- فترة الطفولة بالنسبة للأفراد، وبداية التكوين بالنسبة للمجموعات، ولحظة الإطلاق بالنسبة للحركات، وتاريخ التأسيس أو الاستقلال بالنسبة للدول، وتكون الاحتفالات طريقة نعبّر فيها عن الأحداث المهمة ونقدّر الإسهامات الحيوية ونقرّ بهوية مشتركة ونعمّق إحساسنا المجتمعي، وتشكل طريقتنا في تفسير هذه اللحظات بداية تأسيس الأعراف، والتوقعات، وأنماط سلوكية تؤثر في مجموعها على التطورات اللاحقة، ونرتكز عليها ونعود إليها مرة تلو الأخرى، وتمأسس الدول قصة تكوينها لتكون مصدراً متجدداً للتوجيه والإلهام، كما تعيد معظم المجموعات الدينية رواية قصتها عن خلاص البشر بشكل أسبوعي، وتتيح لنا القصة المحكية تحويل لحظات الأزمات الكبيرة إلى لحظات "بدايات جديدة".

خاتمة

تسمح الرواية لنا بالتعبير عن القيم التي تدفعنا إلى اتخاذ الخيارات التي نتخذها، ولا تشكل الرواية حديثا عن القيم، بل تجسّد وتوصل تلك القيم، ومن خلال التجربة المشتركة لهذه القيم يمكن لنا الانخراط مع الآخرين وتحفيز بعضنا البعض على التحرك واستجماع الشجاعة للقيام بمخاطرة واستكشاف الإمكانيات ومواجهة التحديات المحدقة.